دكتور بهاء الأمير

الحملة الصليبية يهودية[•]!

•) من كتاب : اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية

بين الثامن عشر والسابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥م انعقد مجلس كليرمون Council of Clermont في جنوب فرنسا ، وكان ختام المؤتمر خطبة للبابا أُربان الثاني قال فيها عبارته التاريخية :

الرب يريدها

Dieu li volt

وبهذه الخطبة وبإرادة الله لها بدأت الحروب الصليبية!

غير أن الإله الذي أراد الحروب الصليبية ليس إله النصارى كما هو شائع ، وكما توهم عشرات الألوف ومئاتها ممن زحفوا تحت راية الصليب ، بل إله الملك الإلهى الذي اختار بني إسرائيل للحكم وحصره فيهم.

وخطبة البابا أُربان الثاني التي ألقاها في حشود الرهبان الزاحفة من الأديرة في كل مكان من أوروبا الى كليرمون ، والمختلطة مع الأمراء والنبلاء والإقطاعيين الفرانكا وأتباعهم وكتل العوام التي حشدها الرهبان في طريقهم إلى كليرمون ، خطبة البابا أُربان الثاني هي نفسها دليل تاريخي على أصله الميروفنجي وعلى الرابطة بينه وبين الفرانكا واليهود .

فقد افتتح البابا أُربان الثاني خطبته التي ألقاها في الحشود المحتشدة أمامه في صقيع نوفمبر بالفرنسية ، وسجلها روبرت الراهب Robert the monk ، وكان أحد حضورها ، افتتحها موجهاً خطابه الى الفرانكا لا إلى المسيحيين ، ولا الى المؤمنين ، وبدأها بعبارة لا يلقيها إلا يهودي إلى يهود :

" **يا شعب الفرانكا القادم عبر الجبال ، ياشعب الله المحبوب المختار** " !

Or , race of Franks , race from across the mountains , race chosen and beloved by god.

وفي مشهد مسرحي صمت البابا طويلاً وهو يعقد يديه وينظر الى السماء فوق المنصة التي أقيمت له ، ثم التفت الى الحشود المحتشدة أمامه ليخبرهم بما أوحت به السماء إليه ، وهو أن الله يريدها ، ليشتعل حماس حشود الرهبان الممتزجة بكتل العوام والرعاع والجميع يهتفون : الله يريدها ، الله يريدها[•].

• انظر المشهد في ملحق الصور.

أما في عالم سر السر فيقول لوماس ونايت إن الذي أرادها ليس الله ، بل إن الذي أرادها ودبر لها وحشد الرهبان والعوام من أجلها الأسر الميروفنجية اليهودية التي تغلغلت في مجتمعات غرب أوروبا حتى صارت صفوتها ونبلاءها وأمراء الإقطاع فيها ، وفي الوقت نفسه أقامت مملكة الأديرة والرهبان وهي التي تملك زمامها وتعرف مكامن إثارتها وتحريكها.

وقد نص لوماس ونايت على هذه الأسر والبيوتات اليهودية التي دبرت للحملة الصليبية الأولى وهيأت الظروف لاشتعالها ، وكانت هى النار التي أثارت الرهبان والعوام ثم دفعت البابا اليهودي نحوها.

بل ونص لوماس ونايت على أن هذه الأسر المسيطرة على مقاليد المجتمعات الأوروبية والموجهة لمسار الأحداث فيها كانت هي القوة الدافعة خلف كل حملة صليبية والموجهة لها نحو الشرق.

وهذه الأسر والبيوتات التي نص عليها لوماس ونايت هى : أسرة شامبان Counts of Champagne ، وأسرة جيزور Lords of Gisors ، وأسرة بايان Lords of Payens ، وأسرة فونتان Counts of Fountaine ، وأسرة فلاندرز Counts of Flanders ، وأسرة أنجو Counts of Anjou ، وأسرة دي بويون Counts of Bouillon ، وأسرة سنكلير في اسكتلندا Sinclairs of Roslyn ، وأسرة سان كلير دي جيزور في فرنسا st. Clair de Gisors ، وأسرة برين Brienne ، وأسرة جوانفي Joinville ، وأسرة شومون Chaumont ، وأسرة هابسبرج Hepsburg ، وأسرة لورين Dukes of Lorraine ، وأسرة أكوتان Dukes of Aquitaine ، وكونتات ريز Counts de Razes ، وأسرة أوفيرن Counts of Auvergne ، وكونتات تولوز Counts of Toulous ، وأسرة بلوا Counts of Blois ، وأسرة بولون Counts of Boulogne .

وهذه الأسر والبيوتات النبيلة والإقطاعية هى نفسها التي نص هوبكنز ورفاقه على أن ميشيل ، مصدر معلوماتهم ، أخبرهم أنها هي مجموعة أسر الملك الإلهي Rex Deus التي تنحدر عبر داوود من سبط يهوذا ، وعبر هارون من سبط لاوي.

فالذي دبر للحملة الصليبية الأولى ، قاطرة الحروب الصليبية وشرارة حروب المائتي عام التى استغرقتها ، والذي أوقد نارها وألقى بالغرب والشرق في أتونها ليس سوى بنى إسرائيل!

فكيف إذاً ؟

تختلف الحملة الصليبية الأولى عن كل ما تلاها من حملات في أمرين.

الأمر الأول : أنها كانت حملة عوام أو حملة شعبية لا ملوك فيها ولا دول ، فقد كان أقوى ملوك أوروبا ، فيليب الأول Philipe I ملك فرنسا ، ووليم الثاني William II ملك إنجلترا ، وهنري الرابع Henry IV ملك ألمانيا مطرودين خارج حظيرة البابوية وعلى خلاف مع البابا أُربان الثانى نفسه ، ومن ثَم لم تكن لهم صلة بالحملة الصليبية الأولى والدعوة إليها ، ولا بالتدبير لها من قريب أو بعيد.

وكان الذي تولى تعبئة كتل العوام وحشد حشود الرهبان ودفعها للحرب المقدسة البابا أُربان الثاني نفسه وشبكة الأديرة التي تدور حول دير كلوني وتدين كلها بالولاء للبابا ، وهو رئيس دير كلوني قبل صعوده للسدة البابوية.

والبابا دبر للحرب المقدسة بالتحالف مع الأشراف والنبلاء والأغنياء وأمراء الإقطاع ، فكل كونت أو دوق أو لورد من هؤلاء حمل الصليب في إقطاعيته أو إقليمه وجمع حوله الرهبان ، ومِن حولهم عوام الفلاحين ، فصار تحت لواء هؤلاء النبلاء والإقطاعيين حشود لا حصر لها ولا رابط ولا انسجام بينها ، يلهب حماس المؤمنين والمخلصين منهم عبارات رهبان الأديرة التابعين لهؤلاء النبلاء والإقطاعيين ، ويغري من ليس من أهل الإيمان والتقوى بالانضمام الى الحملة الزاحفة الى الشرق ما يوعدون به من المكاسب والمغانم ، وما يُغرَون به من كل صنوف الإغراء وألوانه.

فالبابا أُربان الثاني منح صكاً مفتوحاً لكل من مات في الأرض المقدسة ان تُغفر ذنوبه ، وأَذن الإقطاعيون لأقنان الأرض أن يتركوا أراضيهم ، وأُعفي سكان المدن من الضرائب ، وأسقطت ديون من يذهب الى الأرض المقدسة ، وأطلق البابا سراح المسجونين ، وخفف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم بها إذا خدموا طوال حياتهم في الأرض المقدسة.

وانضم الى هذه الحشود المتنافرة آلاف المتشردين الباحثين عن مأوى في أي مكان ، والمغامرين الباحثين عن المغانم في أي اتجاه.

والأمر الثانى : الذي تختلف فيه الحملة الصليبية الأولى ، شرارة الحروب الصليبية ، هو أنها ، كما يصفها ول ديورانت في قصته للحضارة :

" كانت في مجملها مغامرة فرنسية خالصة" !

فأمراء الإقطاع والنبلاء والبيوت التي تولت جمع حشود الحملة الصليبية الأولى ، وعبأت الرهبان ، ومِن حولهم كتل العوام والفلاحين كانوا جميعاً وبلا استثناء من الفرنجة ، والفرنجة هم الفرانكا.

وكل من شارك في الحملة الصليبية الأولى من خارج فرنسا كان عن طريق الأديرة والرهبان وبتحريضها وتنظيمها ، وهذه الأديرة وعلى رأسها كلوني والألفا دير التي تتبعه كان ولاؤها لأمراء الفرانكا الذين أقاموها ويغدقون عليها ويشملونها برعايتهم.

وكانت الأسرة الكارولنجية الحاكمة لفرنسا قد هرمت في القرن العاشر بسبب حروبها التوسعية المتواصلة ، فانكمشت على نفسها وضعفت سيطرتها على أقاليم فرنسا المختلفة ، فازدهرت الأسر المسلحة القوية المحلية التي كانت تسكن القلاع المنتشرة في كل مكان ، فتفككت فرنسا ولم يعد للملك سلطة حقيقية على معظم الأقاليم ، بل صار يحكم كل إقليم كونت أو دوق ، هو وأسرته[•].

وهذه البيوتات والأسر ، سادة فرنسا ، التي دبرت للحملة الصليبية الأولى وتولت مع البابا أُربان الثاني والأديرة ورهبانها تهييج العوام وتكتيلها ودفعها في اتجاه اورشليم ، والتي ذكرها ديورانت وأخفى أسماءها بمنهج المؤرخين التقليدي الذي يتحرك فيه التاريخ وحده ، والأحداث فيه تحدث من تلقاء نفسها وهي البطل ، هذه الأسر لم تكن سوى الأسر الميروفنجية اليهودية التي كشفها وكشف من هي لوماس ونايت وهوبكنز ورفاقه والمؤرخ المجهول من الثقب الذي أطلوا به على عالم سر السر.

• انظر خريطة لمقاطعات الفرانكا إبان الحروب الصليبية في ملحق الصور.

ذرائع لا أسباب :

يوجز وِل ديورانت أسباب الحملة الصليبية الأولى عند المؤرخين والبواعث إلى شنها في أسباب ثلاثة.

السبب الأول والمباشر للحملة الصليبية : هو طلب الإمبراطورية البيزنطية من الكنيسة الكاثوليكية إغاثتها لصد غارات السلاجقة الأتراك عليها.

فقد كانت الإمبراطورية البيزانطية تترنح تحت ضربات القبائل السجلوقية المسلمة الزاحفة عليها ، ففى سنة ١٠٧١ م هزم الملك المجاهد إلب أرسلان الجيش البيزنطي هزيمة ساحقة في موقعة ملاذكرد وكاد أن يبيده فيها إبادة تامة ، واستولى على أجزاء كبيرة من أملاك الامبراطورية في آسيا الصغرى.

وكان السلاجقة قد فتحوا سنة ١٠٥٨م حمص وأنطاكية ، ثم أتبعوها بفتح طرسوس ونيقية الشهيرة في التاريخ والمقدسة في المسيحية بمجمعها الذي استقرت فيه العقيدة المسيحية على ما عرفه العالم عنها ، فاضطر الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول كومنينوس Alexios I Kommenenos الى عقد معاهدة صلح مع السلاجقة تنازل لهم فيها عن معظم أراضي الإمبراطورية في أسيا الصغرى.

ولم توقف المعاهدة ، مع ما فيها من مهانة للإمبراطورية ، ضربات السلاجقة لها وإغاراتهم عليها حتى صاروا يحومون حول القسطنطينية نفسها.

وفي مارس سنة ١٠٩٥م أثناء انعقاد مؤتمر بياسنزا Piacenza الكاثوليكي أرسل الإمبراطور ألكسيوس سفراءه إلى المجلس وإلى البابا أُربان الثاني يطلب معاونة الكنيسة الكاثوليكية وأوروبا اللاتينية الغربية لصد غارات السلاجقة المسلمين وإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية الشرقية.

ومن الطريف ، وهو من الدلائل على أن إغاثة بيزنطة لم تكن سوى ذريعة لتهييج العوام وحشد الرهبان وقدح شرارة الحملة التي كان هدفها الحقيقي شئ آخر ، أن الإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية كانت هي أولى ضحايا الحملة الصليبية الأولى!

فالذي طلبه الإمبراطور البيزنطي ونص عليه في رسالته الى مؤتمر بياسنزا هو إمداده بقوات عسكرية مدربة جيداً من أوروبا اللاتينية تتحرك بإمرته ، وتقاتل تحت رايات الإمبراطورية البيزنطية وضمن خططها واستراتيجيتها لصد السلاجقة الأتراك Mercenary Forces.

أما الذي حدث فعلاً فهو أن رسالة الإمبراطور البيزنطي تحولت الى ذريعة البابا أُربان الثاني والأسرة الفرانكية النبيلة والإقطاعية المتحالفة معه من أجل إثارة العوام والرهبان.

وبعد مجلس كليرمون وإطلاق شرارة الزحف المقدس الى مهد المسيح وقبره ، الذي لم يكن سوى غلاف آخر للغاية الحقيقية ، كان البابا أُربان الثاني قد حدد موعداً لبدء الزحف الى الأرض المقدسة ، هو شهر أغسطس سنة ١٠٩٦م ، ولكن العوام الهائجة بالشعارات ، وكعهدها في كل زمان وفي كل مكان ، لم تنتظر الموعد الرسمي لبدء الحملة وانطلقت خلف رهبان الأديرة !

وأشهر رهبان الحملة الصليبية الأولى هو بطرس الناسك Peter The Hermit .

ما أن أعلن البابا أُربان الثاني في كليرمون أنها إرادة الله حتى انطلق بطرس الناسك حاملاً الصليب في إقطاعيات أوروبا وأريافها من بيري Berry الى اورليانOrleans ، ومن شامبان Champagne إلى لورين Lorraine ، ومن بورجندي Burgundy إلى بروفانس Provance وتولوز Toulouse.

وفي كل مكان يهبط عليه بطرس الناسك يرفع الصليب ويبكي ليحتشد حوله الألوف من الرهبان والفلاحين ، ثم يتبعونه لأنه يبشرهم أن أورشليم لن يحررها الملوك والأمراء ، لن يحررها سوى الفقراء من أتباع المسيح المخلصين وبمعونة الرب وحده!

وفي مارس سنة ١٠٩٦م زحف اثنا عشر ألفاً من الرهبان والفلاحين تحت قيادة بطرس الناسك وولتر الأفواري Walter The Avoir من فرنسا في طريقهم الى أورشليم ليلتقوا بجحفل آخر عُدته خمسة آلاف راهب وفلاح بقيادة الراهب جتشوك Gattschalk قادم من ألمانيا ، وبجحفل ثالث قادم من بلجيكا بقيادة إيمكو Emico كونت لييننجين Leiningen ، ثم اخترقت هذه الجحافل الجرارة وسط أوروبا وسارت مع الراين والدانوب وهم يسألون عند كل بلدة يصلون إليها : هل هذه هي أورشليم؟!

وفي نهاية الزحف المقدس وصل جيش الرهبان والفلاحين وقد أنهكه الجوع والعطش والأمراض ومقاومة البلاد التي مر بها إلى محطته النهائية : القسطنطينية!!

وعاث رعاع الزحف المقدس في القسطنطينية فساداً ، فاقتحموا الكنائس والقصور ونهبوا المتاع والدور، ولم يجد الإمبراطور ألكسيوس كومنينوس وسيلة لإنقاذ عاصمة الإمبراطورية من هذا الجراد الزاحف عليها سوى شحنهم في أسرع وقت في سفن عبرت بهم البسفور ، مع ما يكفيهم من غذاء ومؤن الى آسيا في انتظار وصول القوات الصليبية النظامية من أوروبا.

ولم تستطع هذه الجموع الهائجة الانتظار فزحفت الى المدينة المقدسة نيقية من أجل تحريرها من الكفار ، فانقضت عليهم قواتٌ من السلاجقة جيدة التنظيم والتدريب فأبادتهم عن آخرهم ، ولم يبق منهم أحد سوى بطرس الناسك الذي كان قد أطلقهم في اتجاه نيقية وعاد هو إلى القسطنطينية!

وبطرس الناسك ولد في منتصف القرن الحادي عشر تقريباً وبدأ حياة الرهبنة في أواخر شبابه بإنضمامه ، كالكثير من أقرانه ، إلى أحد الأديرة .

والدير الذي تكوَّن فيه بطرس الناسك وظل فيه طوال عمره ولم يخرج منه إلا إلى الحملة الصليبية هو دير أورفال Orval قرب مدينة ستيناي Stenay في منطقة أردينيه Ardennes جنوب فرنسا ، وهو الدير الذي تبرعت بالأرض التي أقيم عليه وأسسته ، ثم تولته بالرعاية وأغدقت عليه الأموال والعطايا أسرة لورين Lorraine الميروفينجية العريقة وإحدى أسر الملك الإلهي ، بني إسرائيل!

وأسرة لورين هذه هي الأسرة التي كان رأسها زمن الحملة الصليبية الأولى جودفروا دي بويون دوق لورين Godfrio de Bouillon, Duke de Lorraine ، وهو أول ملوك مملكة أورشليم اللاتينية الصليبية!

وبطرس الناسك ، الذي جمع الرهبان والفلاحين ليسيروا خلف صليبه في حماسة وخشوع لأن الذى سيحرر القبر المقدس بمعونة الرب وحده الفقراء لا الملوك والأمراء ، كان هو الذى عهد إليه أيوستاش Eustace كونت بولون Boulogne بتأديب ابنه جودفروا دى بويون وتعليمه ، لأن بطرس الناسك قبل أن يترهب كان ملتزماً في إقطاعيته!!

وأما جودفروا دي بويون نفسه فقد تم تنصيبه بعد استيلاء الحملة الصليبية المنظمة على أورشليم ملكاً على مملكتها لصلاحه وتقواه المنقطعي النظير ، كما يقول ول ديورانت ، وهي مؤهلات لا تكفي وحدها لتفسير تنصيب راهب على دير لا ملك على مملكة مقاتلة!

أما في عالم سر السر فيقول لنكولن ورفاقه ، ولوماس ونايت ، وهوبكنز ورفاقه ، والمؤلف المجهول إن دي بويون صار أول ملوك أورشليم لأنه الوريث الشرعي لمُلكها ، فجودفروا دي بويون صار ملكاً على أورشليم باتفاق قادة الحملة الصليبية الأولى من الأمراء والنبلاء ، ومن قبل وصولهم إلى أورشليم ، لأنه أصرحهم نسباً في الأسرة الميروفنجية ، وأكثرهم اتصالاً بفرع الملوك منها ومن بني إسرائيل.

جودفروا دي بويون هو حفيد جويليم دي جيلون كونت سبتمانيا وتولوز وملك اليهود ، ومن ثَم فهو سليل داوود ووريث أورشليم الشرعي وأول من يصل من بني إسرائيل إلى ملكها من نسله.

الوصول إلى أورشليم واستعادتها وتنصيب ملك عليها من نسل داوود كان هو الهدف الحقيقي للحملة الصليبية وليس مارفعه من دبروا لها من شعارات ، ولا ما ملأ به المؤرخون كتب التاريخ من أهداف أتتهم بها الأحداث التي يرصدون ظواهرها ولا اطلاع لهم على بواطنها ولا اعتناء لهم بالربط بينها أو البحث عن الفاعل الحقيقي وصاحب الغاية من خلفها ، لأن التاريخ عندهم سار في الاتجاه الذي سار فيه وحده ، والأحداث تحدث بالظروف والملابسات من تلقاء نفسها!

ولم يبق من السبب الأول للحملة الصليبية ، سوى أن ذريعة الحملة الصليبية هي نفسها ملفقة!!

فاستغاثة الإمبراطور البيزنطي نفسها لم تكن عفواً ولا مصادفة ، بل كانت بتدبير وترتيب.

في دراسة عن الحملة الصليبية الأولى يقول جون بريسكو Jon Presco إن بعض الأمراء والإقطاعيين وحكام المقاطعات في فرنسا كانوا يسعون جاهدين الى تهيئة أجواء أوروبا من أجل دفعها الى الحملة الصليبية.

وإحدى الاستراتيجيات الخفية لهؤلاء الأمراء والإقطاعيين والحكام هي توثيق صلاتهم مع الإمبراطورية البيزنطية ومع الإمبراطور نفسه ، لتكون هذه الصلات وسيلة لتمهيد أجواء أوروبا ، وذريعة لحشد القوات فيها لإعانة بيزنطة في صراعها مع السلاجقة المسلمين.

ومن أجل توثيق صلات هذه الإقطاعيات والمقاطعات والإمارات مع بيزنطة كان يتعمد أمراؤها وعمداء أسرها الحاكمة العروج على بيزنطة والالتقاء بالإمبراطور في طريقهم الى الأرض المقدسة للحج ، وفي إيابهم منها.

وأشهر من زاروا القسطنطينية في رحلاتهم للحج والتقوا الإمبراطور من أمراء الإقطاع وحكام المقاطعات في أوروبا الغربية كونراد الأول Conrad I كونت لوكسمبرج Luxemburg سنة١٠٨٦م ، ووليم الرابع William IV كونت تولوز سنة ١٠٩٤م.

وفي ذروة ازدهار رحلات الحج المسيحي إلى الأرض المقدسة سنة ١٠٨٩م ، وبعد اعتلاء البابا أُربان الثاني العرش البابوي بسنة واحدة ، زار روبرت الأول Robert I كونت فلاندرز Flanders القسطنطينية والتقى الإمبراطور ألكسيوس كومنينوس.

ويقول جون بريسكو إن روبرت الأول كونت فلاندرز هو الذي أدخل فى رأس الإمبراطور البيزنطي فكرة استعانة الإمبراطورية في حربها مع السلاجقة بقوات فرسان من غرب أوروبا ، ووعده إن هو طلب ذلك أن تكون إمارات اوروبا الغربية ومقاطعاتها معه في حربه ، وأن تمده بما شاء من فرسان وقوات لتكون تحت إمرة الإمبراطورية ، وتعهد له أن يمده هو شخصياً بقوة فرسان قوية مدربة بخيولها من إمارته.

ولم يكن عرض كونت فلاندرز للإمبراطور من أجل المجاملة ، وما كان الإمبراطور ، وهو في مأزق ويكاد يفقد الإمبراطورية ، يستطيع أن يصمد أمام إغراء الكونت بإمداده بالفرسان وإعانة الإمبراطورية على صد غزوات السلاجقة وهو يعلم مكانته في غرب أوروبا وصلاته بأمرائها ونبلائها ، ويعلم قبل ذلك مواهبه الحربية ومقدرة فرسانه.

فقد كان روبرت الأول كونت فلاندرز صاحب أكبر قوة فرسان في أوروبا الغربية ولا يضارعها في عددها وتدريبها وما خاضته من معارك أي قوة أخرى في أوروبا كلها.

وكان كونت فلاندرز نفسه محارباً مغواراً وقائداً محنكاً ومغامراً عاشقاً للقتال والحروب وذا خبرة كبيرة فى قتال المسلمين.

فلم يكن عرض الكونت على الإمبراطور البيزنطي أول عروضه ولا حروبه ضد المسلمين ، وإحدى أشهر مغامراته الحربية أنه أبحر مع قوة كبيرة من فرسانه من إمارته إلى جاليشيا Galicia في إسبانيا على متن أسطول صغير من أجل مشاركة الكاثوليك في القتال ضد جيش المرابطين العابر الى الأندلس سنة ١٠٨١م.

ولأن كل أسباب الحملة الصليبية الأولى لم تكن سوى ذرائع مدبرة لا أسباب حقيقية ولا ظروف وأحداث تلقائية ، فمن الطريف أيضاً أنه حين وصلت القوات الصليبية المنظمة إلى القسطنطينية ، وعلى رأسها الأمراء والحكام الذين أدخلوا فى رأس الإمبراطور أن يستعين بهم فوجئ الإمبراطور بضخامة هذه القوات وكثرة ما فيها من فرسان وما يسير في ركابها من الرهبان والفلاحين مما لم يتوقعه ولم يكن قد طلبه ولا أراده ، فخاف على إمبراطوريته منهم.

وعند وصول الأمراء والحكام والنبلاء الى القسطنطينية التقاهم الإمبراطور فرادى ، وقبل أن يسمح لهم بعبور البسفور من أوروبا الى آسيا أجبرهم واحداً واحداً على أن يقسموا أمامه على الولاء للإمبراطورية البيزنطية وله هو نفسه ، وعلى أن يعودوا الى أوروبا الغربية بعد انتهاء مهمتهم ، وأن يعيدوا الى سيادة الإمبراطورية كل ما تمر عليه جيوشهم ويستولون عليه من بلاد في طريقهم الى الأرض المقدسة ، وهو مالم يحدث!!

والسبب الثاني للحملة الصليبية الأولى عند المؤرخين هو حماية الحجاج المسيحيين من أوروبا الى الأرض المقدسة من اضطهاد السلاجقة لهم.

يقول وِل ديورانت :

"**إن العالم قد كيَّف نفسه لقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى ، وكان الفاطميون ، حكام مصر ، يحكمون فلسطين حكماً رحيماً استمتعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة في ممارسة شعائر دينها ، وكان في وسع الحجاج المسيحيين أن يدخلوا الأماكن المقدسة بكامل حريتهم ، وكان الحج الى فلسطين قد أصبح منذ زمن بعيد إحدى شعائر العبادة والتوبة من الذنوب ، فكان الإنسان أينما سار في أوروبا يلتقي بحجاج يدلون على أنهم أدوا هذه الشعيرة بأن يضعوا على أثوابهم شارة في شكل**

الصليب من خوص النخل جاءوا به من فلسطين ، ولكن الأتراك انتزعوا بيت المقدس من الفاطميين سنة ١٠٧٠م ، وأخذ الحجاج المسيحيون بعد عودتهم الى أوطانهم يتحدثون عما يلقونه فيها من ظلم وتحقير".

فأما الدليل الوحيد الذي قدمه ديورانت على ماصار يلقاه الحجاج الى الأرض المقدسة من ظلم وتحقير فهو :

"**شيوع قصة قديمة فى أوروبا ، ولا نجد ما يؤيدها ، أن أحد هؤلاء الحجاج حمل الى البابا أُوربان الثاني رسالة من سمعان بطريق أورشليم تصف بالتفصيل ما يعانيه المسيحيون من اضطهاد وتستغيث به لينقذهم**".

وأما بطل هذه القصة القديمة التي أوردها ديورانت ولم يجد ما يؤيدها ، الحاج الذي كان كافياً وحده ليشعل حروباً دام أُوارها مائتي سنة ، فهو بطرس الناسك!

ومالم يذكره ديورانت ولم يرد في خلده أن ينقب عنه هو أن رحلات الحج التي كانت حمايتها إحدى ذرائع شن الحملة الصليبية الأولى هي نفسها كانت جزءًا من استراتيجية محكمة النسج وشديدة الأناة ، غايتها تمهيد أوروبا للحرب عن طريق ربط الأوروبيين بالأرض المقدسة ، وإثارة مشاعرهم برؤية مهد المسيح وقبره ومنبع المسيحية في أيدي غير أتباعه ، لتكون المرحلة التالية هي استنفارهم من أجل تخليصها.

فالتحول الذي حدث في معنى الرحلة إلى الأرض المقدسة من الزيارة الى الحج لم يحدث وحده ولا من تلقاء نفسه كما توهم ديورانت وأوهم من يقرأ له ، فالزمان البعيد الذي ذكر ديورانت أنه بدءًا منه صار الحج الى فلسطين إحدى شعائر العبادة والتوبة من الذنوب ليس سوى زمان اعتلاء سلفستر الثاني ، أول بابا من أصل ميروفنجي ، عرش الكنيسة الكاثوليكية!

قبل صعود البابا سلفستر الثاني الى العرش البابوي كان الذهاب إلى الأرض المقدسة يتم بصورة تلقائية وفردية ، فكان المسيحيون يرتحلون من أوروبا الى الأرض المقدسة فرادى أو في جماعات بسيطة للزيارة فقط ، ودون أن يكون لزيارتهم علاقة بالعبادة والتوبة ولا بالطقوس والشعائر.

ومع اعتلائه للعرش البابوي اعتمد البابا سلفستر الثاني استراتيجية دفع الأوروبيين الى زيارة الأماكن المقدسة بكثافة وفي جماعات كبيرة ، فحوَّل زيارة الأماكن المقدسة في

الشرق إلى حج مقدس ، هو شعيرة من شعائر العبادة وإحدى وسائل التوبة والتطهر من الذنوب ، وبه ينال الحاج الغفران ، بل ويصير في إمكان الحجاج بعد أدائهم للحج ، كما نقل ديورانت عن بيرز بلومان Piers Plowman ، أن يكذبوا ويخادعوا ما بقي من حياتهم!!

وأثمرت البذرة التي ألقاها البابا سلفستر الثاني ثمارها التي كان يعلم أنها لابد أن تثمرها.

ازدهرت رحلات الحج المسيحية من أوروبا الى أورشليم إبان القرن الحادي عشر أزدهاراً كبيراً ، ولم تعد تقتصر على أفراد من الرهبان التائقين لرؤية مهد المسيح وقبره ، ولا السائحين المتشوقين لرؤية الأماكن التي يقرأون عنها في الكتاب المقدس ، بل تقاطر الأوروبيون زرافات ووحداناً من كل حدب وصوب في أوروبا نحو أورشليم شوقاً إليها وطلباً للمغفرة لما تقدم من ذنوب ، وضماناً لغفران ما تأخر منها.

ومع منتصف القرن الحادي عشر كانت الزرافات والوحدان قد صارت جحافل من الأفواج العابرة لأوروبا نحو الأرض المقدسة ولا تنقطع ، لا صيفاً ولا شتاءًا.

وحوَّل البابا سلفستر الثاني الذهاب غلى الأرض المقدسة من زيارة وسياحة إلى حج وشعيرة وعبادة ، ليكون جمع الحجاج في أنحاء أوروبا المختلفة وتنظيم الرحلات وترتيب الانتقالات وقيادة الأفواج مهمة يتعاضد على القيام بها رهبان الأديرة مع أمراء الإقطاعيات وحكام المقاطعات في غرب أوروبا.

وهما معاً وجهان للشئ نفسه ، فهؤلاء الأمراء والحكام هم من أنشأوا هذه الأديرة ويمولونها ويقومون على رعاية هؤلاء الرهبان.

يتولى الرهبان إثارة مشاعر العوام بأحاديثهم عن الأماكن المقدسة وتشويقهم لرؤيتها ودفعهم للتوبة ونوال المغفرة بالحج اليها ، ثم يجمعون من حشدوهم من العوام ويقودونهم عبر طرق الحج الطويلة الى الأرض المقدسة ، وتذكر الموسوعة الكاثوليكية أن أحد هؤلاء الرهبان ، وهو جونثر Gunther أسقف بامبرج Bamberg ، تمكن سنة ١٠٦٥م من حشد اثني عشر ألف حاج من ألمانيا ، ثم قادهم وعبر بهم وسط أوروبا وجنوبها حتى وصل بهم إلى أورشليم وحده!

وقد كانت أديرة هؤلاء الرهبان تسيطر سيطرة مطلقة على طرق الحج إلى الأماكن المقدسة في أوروبا ، فمدت سلطانها إلى طرق الحج التي تكونت من أوروبا عبر الإمبراطورية البيزنطية إلى الأماكن المقدسة في الشرق.

وفي الوقت نفسه كان الأمراء والنبلاء يقدمون القدوة والمثل لأتباعهم في الإمارات والإقطاعيات والمقاطعات التي يحكمونها ، فلم تكن تخلو رحلة حج من الأمراء والنبلاء والإقطاعيين ، يجمع أحدهم أتباعه ويحضهم على التطهر برؤية الأماكن المقدسة ، ثم يخرج مع الأفواج الراحلة إلى أورشليم ، ويوفر لها من يحرسها من الفرسان ، بل ومول بعض الأمراء والنبلاء ، وخاصة من فرنسا ، أفواجاً كاملة في رحلتها.

وفي الموسوعة الكاثوليكية أن أول من سن هذه السنة ريتشارد الثاني Richard II دوق نورماندي Normandy ، ففي سنة ١٠٢٦ جمع رئيس دير القديس فينيه Saint Vennnes سبعمائة حاج وقادهم من فرنسا إلى أورشليم ، وكان ريتشارد دوق نورماندي هو الذي مول الفوج بأكمله ، جمعاً وانتقالاً ومعيشة ، ثم حذا باقي نبلاء نورماندي وفرنسا حذوه.

وأغلب قادة الحملة الصليبية الأولى ، وعلى رأسهم جودفروا دي بويون نفسه ، خرجوا مع أفواج الحج وزاروا أورشليم بدلاً من المرة مرات.

وغاية الحجاج كانت التطهر والتوبة ، ولكن من جعلوا التطهر والتوبة مشروطاً بالحج الى أورشليم كان لهم غاية أخرى ، هي ربط أوروبا كلها بالأماكن المقدسة ، وتعبئة أذهان أهلها بأخبارها ، وتشويقهم لها ، وإلهاب عواطفهم بأجوائها من أجل دفعهم لاحقاً لتخليصها.

ومن أجل هذه الغاية أسس البابا اليهودي سلفستر الثاني عدة منظمات لتدوين أخبار الأرض المقدسة ونشرها وألحقها بالأديرة .

والبابا أُربان الثاني هو بطل الحملة الصليبية الأولى ، وقد شنها وأعلنها لأن الرب أوحى بها إليه من أجل إنقاذ الإمبراطورية البيزنطية ، لكن البابا جريجوري السابع ، وهو أيضا ميروفنجي ، كان سابقاً للبابا أُربان الثاني فى السعي لتحريك حملة صليبية نحو الشرق بذريعة إنقاذ الإمبراطورية البيزنطية.

ففي سنة ١٠٧٤م ، بعد موقعة ملاذكرد التي سحق فيها السلاجقة جيش الإمبراطورية وتوغلوا في آسيا الصغرى ، أرسل البابا جريجوري السابع رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع Michael VII يعرض عليه إغاثة الإمبراطورية البيزنطية ومعاونتها في صد غزو السلاجقة ، ويخبره أنه قادر على حشد جيش من خمسين ألف مقاتل يقودهم هو بنفسه (البابا) من أجل إنقاذ المسيحية الشرقية وإعادة توحيد العالم المسيحي في مواجهة الخطر الإسلامي.

أما فكرة شن حملة صليبية على العالم الإسلامي من أجل استعادة أورشليم وتخليص مهد المسيح وقبره فلم تكن فكرة البابا أُربان الثاني ولا البابا جريجوري السابع ، بل فكرة رجل آخر لم تُعنه ظروف زمنه على تحقيقها فظلت تنمو في الأذهان إلى أن جاء أوانها.

وهذا الرجل الآخر هو نفسه الذي حول الرحلة الى أورشليم من زيارة وسياحة إلى حج وعبادة ، لتكون هذه خطوة أولى في الطريق الطويل إلى استعادتها!

صاحب فكرة الحملة الصليبية هو البابا سلفستر الثاني نفسه!

السبب الثالث لشن الحملة الصليبية عند المؤرخين هو رغبة المدن الإيطالية ، بيزا وجنوه والبندقية وأمالفي ، في توسيع ميدان سلطانها التجاري الآخذ في الازدياد ، فهذه المدن هي الثغور التي كانت تخرج منها غلات إيطاليا والبلاد الواقعة وراء الألب.

في سنة ١٠٢٢م استولى النورمان على سردينيا ، وفي سنة١٠٦٠م استردوا صقلية من المسلمين ، ثم كورسيكا سنة ١٠٩١م ، ففتح استيلاء النورمان على الجزر الثلاثة مضيق مسينا والجزء الغربي من البحر المتوسط أمام الملاحة الأوروبية ، فأخذت المدن التجارية في إيطاليا تعمل جاهدة للقضاء على تفوق المسلمين في الجزء الشرقي من البحر المتوسط لكي تفتح أسواق الشرق الأدنى لبضائع غرب أوروبا.

تقع إيطاليا في الغرب وتخترق البحر المتوسط في اتجاه الشرق ، وثغورها تتوزع في ثلاث جهات مختلفة ، وتشرف بلدانها الشمالية على ممرات جبال الألب.

وبهذه المزايا الفريدة صارت إيطاليا مركز التجارة الأوروبية مع الإمبراطورية البيزنطية ، ومع الشام ومصر وإفريقية.

ومنذ أواسط القرن التاسع الميلادي تحولت مدن الشواطئ الإيطالية ، بيزا وجنوه وأمالفي ونابولي وسالرنو ، كل مدينة الى دولة City State ، يحكمها دوق حكماً مستقلاً ولها أسطولها وجيشها وتجاراتها ، فكانت تجارة أوروبا كلها تتجمع في هذه المدن المطلة على بحر الأدرياتيك والبحر المتوسط قادمة من حوض نهر الدانوب وحوض نهر الراين عابرة ممرات جبال الألب إليها ، ثم تنتقل عبر أساطيلها إلى شواطئ المتوسط الجنوبية ، لتعود محملة ببضائع جنوب المتوسط ، فتعيد توزيعها عبر أوروبا كلها.

وبين مركز التجارة بين الشرق والغرب في المدن الإيطالية على سواحل المتوسط وبين التجارة داخل أوروبا نفسها رباط وثيق.

فالمدن والمراكز التجارية في أوروبا كانت هي الحلقة التى تكتمل بها دورة التجارة ، فالتجارة القادمة من جنوب المتوسط لتصب في المدن الإيطالية وتتركز فيها كان يُعاد تصريفها داخل اوروبا ، ولولا ذلك لتوقفت دورة التجارة بين الشرق والغرب وماتت المدن الدول الإيطالية.

وفي داخل أوروبا كانت تجارة الجملة التي تتولى تجميع التجارة الدولية وتعيد توزيعها على تجار التجزئة والباعة الجوالين تعتمد على الأسواق الموسمية المحلية التي تقام في مختلف أنحاء أوروبا ، في لندن ، وباريس وليون وإقليم شامبان وبروج في فرنسا ، وفرانكفورت ولايبزج في ألمانيا ، وجنيف في سويسرا ، ونفجورود في روسيا.

وكان كل سوق من هذه الأسواق الموسمية ينعقد لستة أو سبعة أسابيع ، وكان تعاقبها وتداولها بين المدن المختلفة يكون سوقاً دولية لتصريف البضائع القادمة من أنحاء أوروبا المختلفة ومن جنوب المتوسط .

ومن أشهر هذه الأسواق وأكبرها سوق لانيLagny الذي كان يقام في مقاطعة شامبان في فرنسا في شهر يناير ، وسوق بروفانس Province في مايو وسبتمبر ، وسوق تروي Troyes في سبتمبر ونوفمبر.

أما أكبر سوق للتجارة ومركز لتبادل البضائع في أوروبا في القرن الحادى عشر ، فهي مدينة بروج Brouge ، فعندها كانت تتقاطع محاور التجارة الأوروبية ، وكان ميناؤها حصيناً وبعيداً عن خطر القرصنة ، ولذا اجتذبت إليها أساطيل جنوه وفينيسيا ومدن

السواحل الفرنسية ، فكانت أساطيل هذه المدن الإيطالية والفرنسية تهبط ببضائعها في بروج ، ثم تعيد توزيعها عبر أكثر من مائة طريق إلى المواني والمدن الصغيرة .

وفي الوقت نفسه حلت بروج مع الوقت محل كل المدن ذات المواسم التجارية ، فصارت السوق التي تلتقي فيها التجارة الأوروبية كلها ، فكانت حركة النقل الثقيل على أنهار الموز Meuse والشيلد Scheldt والراين Rhine تحمل إلى بروج بضائع ألمانيا وفرنسا لتصديرها إلى روسيا وإنجلترا وإسبانيا ، وبالعكس.

ودورة التجارة الدولية بين جنوب أوروبا ووسطها وشمالها وبين شواطئ المتوسط الشمالية وشواطئه الجنوبية كان يعوق اكتمالها لكي تصير حرة حرية تامة وجود مواني المتوسط الجنوبية في حوزة المسلمين ، ففتح استيلاء النورمان على سردينيا وصقلية وكورسيكا ، وعلى الجزء الشرقى من إسبانيا غرب المتوسط للتجارة الدولية ، ومن ثَم كانت الحملة الصليبية هي الخطوة التي لابد منها للاستيلاء على مواني شرق المتوسط وفتح طريق البضائع من غرب أوروبا إلى الشام وآسيا وإفريقية ، ثم إلى الهند والصين.

الحملة الصليبية الأولى كانت خطوة فى مسيرة إكمال دورة التجارة وتحرير التجارة الدولية.

وهو ما حدث فعلاً ، فقد راجت مع الحروب الصليبية التجارة رواجاً شديداً وازدهر التجار وأثروا ثراءًا فاحشاً ، وانتعش النقل البحري انتعاشاً لا سابق له في التاريخ.

يعقب وِل ديورانت ، وهو يفسر علاقة رغبة المدن التجارية في توسيع سلطانها ونفوذها وإزدهار تجاراتها ونماء ثرواتها بقرار الحملة الصليبية الأولى ، بقوله :

" **ولسنا نعلم إلى أي حد كان هؤلاء التجار قريبين من مسامع البابا ؟**" !

والذي لم يرد على خلد ديورانت أن التجار لم يكونوا في حاجة إلى أن يكونوا قريبين من أذن البابا ،لأنهم هم والبابا اليهودي الذي دبر للحملة الصليبية وأعلنها شئ واحد!

مرة أخرى ، التأريخ الأعمى الذي تحدث فيه الأشياء وحدها ويسير فيه التاريخ في مساره دون تدبير ولا غاية لأحد ، التاريخ الذي يؤرخ فيه المؤرخ للبلاد والبحار ، وللأحجار والأشجار ، وللأسواق الكبير منها والصغار ، والشئ الوحيد الذي يغفله فلا يبحث عنه ولا أثر له في التاريخ عنده هو البشر وما يريدونه وما يربط بينهم!

المدن هي التى دبرت ، والتجارة هي التي أرادت ، والأسواق هى التي حركت ، والبضائع هي التي هيئت ، فأين البشر ، ومن هم الذين يصب في غايتهم كل هذا ؟!

لو كان في ذهن مؤرخ عالم التاريخ البشر فبحث عنهم وعرف من يكونون لما كان في حاجة إلى أن يتعجب متسائلاً عن الطريقة التي وصلت بها تدبيرات التجار وغاياتهم إلى مسامع البابا.

فأسباب الحملة الصليبية الأولى التي ذكرها ديورانت يفسر بها المؤرخون اتقاد أوارها ، والتي تبدو مختلفة ومتناثرة ولا رابط بينها ، ثَمة في ما خلف ظاهرها ما يوحد بينها ، ولو فطنوا إلى التنقيب عنه لصارت كلها شيئاً واحداً.

فهذه الأسباب التي تبدو مختلفة ومتفرقة ومتناثرة ، تدور كلها حول اليهود وتلتقي عندهم.

في كتابه :المسألة اليهودية The jewish question أفرد اليهودي الصهيوني أبرام ليون Abram Leon مساحة واسعة لدور اليهود في الاقتصاد الأوروبي عبر التاريخ.

فيقول ليون إنه منذ القرن الرابع الميلادي :

"**صار اليهود ضمن الطبقات العليا والثرية وجزءًا من صفوة المجتمع في كثير من بلدان أوروبا المسيحية ، وكان أغلب هؤلاء اليهود يعملون في التجارة والأنشطة المالية والاقتصادية**".

وينقل ليون عن الرباني ليوبولد لوكاس Leopold Lucas أن :

"**اليهود كانوا سادة المال والتجارة في أنطاكية Antioch ، وهى أكبر مركز مالي وتجاري في الإمبراطورية البيزنطية ، إلى درجة أن كل الأعمال المالية والتجارية في المدينة كانت تتوقف فى ايام احتفال اليهود بأعيادهم**"!

وهو ما يؤكده إثير بن باسا Esther Ben Bassa في كتابه : يهود فرنسا من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر The Jews of France, A history from the antiquity to the present.

يقول بن باسا إنه منذ القرن الخامس الميلادي ، بعد انشطار المسيحية وانفصال الإمبراطورية البيزنطية بكنيستها الشرقية عن الإمبراطورية الرومانية وكنيستها الغربية :

"**ازدهرت أنشطة اليهود التجارية وطوروا نوعاً من التبادل التجاري على نطاق دولي براً وبحراً** ".

وما ذكره ليون الصهيوني وبن باسا اليهودي تؤكده الموسوعة البريطانية وموسوعة ويكيبديا ، وفي الموسوعتين أن اليهود منذ القرن الخامس الميلادي هم سادة عالم المال ويسيطرون على التجارة في أوروبا سيطرة مطلقة.

ويقول ليون إن اليهود كانوا لعدة قرون هم الوسيط التجاري الوحيد بين الشرق والغرب ، فكانت رحلاتهم التجارية تبدأ من أراضي الفرانكا غرباً ، وتمر محملة بالبضائع الغربية عبر أوروبا إلى السند والهند وحتى الصين ، ثم تعود محملة بمنتجات الشرق وبضائعه في رحلة عكسية حتى تصل مرة أخرى إلى ممالك الفرانكا وأقصى غرب أوروبا ، وبعضهم كان يبحر إلى القسطنطينية لبيع ما أتى به من الشرق ومن الغرب.

اليهود دون شك ، كما يقول ليون :

"**كانوا منذ بداية الدولة الكارولنجية أواسط القرن الثامن الميلادي هم الوسيط التجاري الرئيسي ويكاد يكون الوحيد بين الشرق والغرب**".

وبعد أن فتح المسلمون إسبانيا وازدهرت الأندلس صارت فرنسا وإسبانيا من أكبر أماكن تجمع اليهود ومركزاً لأنشطتهم التجارية ولوساطتهم في تبادل البضائع بين غرب أوروبا المسيحي والأندلس المسلمة ومن خلفها شمال إفريقية.

ومع حلول القرن العاشر الميلادي كانت التجارة بين أوروبا وبين العالم الإسلامي كلها تقريباً في يد اليهود .

فكما يقول دكتور روبرت أونيل Robert O'Neil في دراسة له عن أصول الاقتصاد والمجتمع Origin of economics & society ، تجارة البحر المتوسط كلها كانت في يد التجمعات اليهودية التي تستوطن المدن الكبرى الواقعة على شواطئه الشمالية ، والتجارة بين فرنسا والأندلس ، كما يقول بن باسا ، كان عمادها ووسيطها الرئيسي اليهود.

والتجارة داخل أوروبا كلها وبين بلدانها كانت هي ايضاً تكاد تكون حكراً على اليهود ، حتى صارت كلمة يهودي Jew ، كما يقول برين Prienne في كتابه : محمد وشارلمان Mohamed and Charlemagne ، مرادفة لكلمة تاجر Merchant ، فالتاجر هو اليهودي واليهودي هو التاجر.

وكل اليهود فى أوروبا في القرن العاشر كانوا ، كما يقول ليون ، يعملون في التجارة ونقل البضائع وما يتصل بها من أنشطة ، حتى قال إليعازر بن ناثان Elieser Ben Nathan :

"**إن التجارة هى قوام حياتنا ووسيلتنا الرئيسية للوجود**".

وعلى حافة الحروب الصليبية كان كل اليهود بين كولون Coloqne في وسط أوروبا وماينز Mains في أقصى شمالها يعملون في التجارة ، وفي إسبانيا كانت كل تجارتها الخارجية تحت سيطرتهم ، وتجارة البحر المتوسط حكر على التجمعات اليهودية المستوطنة في المدن الكبرى على شواطئه الشمالية والجنوبية ، وأكثر من نصف ثروات المدن التجارية المتوسطية ، كما يقول روبرت أونيل ، كانت في يد مجموعة من الأسر اليهودية المترابطة التي تسيطر عى أنشطتها التجارية ، وتجارة ليج Lieg ، مركز التجارة في بلجيكا وشمال أوروبا كانت تحت يدهم ، وهم الذين يحتكرون التجارة ونقل البضائع في مقاطعات الفرانكا.

والتجار اليهود الدوليون ، كما يقول ديورانت نفسه :

"**كانوا هم الذين وضعوا طائفة من القوانين التجارية يسيرون على هديها وتضبط المعاملات التجارية وتنظم شؤون التبادل التجاري ، وهذه النظم والقواعد التي وضعها التجار اليهود هي التى أصبحت بعد ذلك أساس القانون التجاري والقانون البحري**"!

والمدن التي ذكر ديورانت أنها المراكز التجارية الرئيسية في أوروبا ، وأن أكبر أسواق تصريف البضائع لأوروبا تقام فيها هي كلها مدن تقع داخل المقاطعات الفرانكية التي يحكمها الأمراء المنحدرون من الأسرة الميروفنجية أو بني إسرائيل.

فأحد أكبر أسواق أوروبا قاطبة ، وهو سوق لاني ، كان ينعقد هو وأخوه سوق تروي في مقاطعة شامبان.

وبروج التي ذكرها ديورانت وأفاض في وصف مركزها التجاري ، وتحَكُّمها في محاور التجارة الأوروبية ، وصلتها بالمدن التجارية الإيطالية على المتوسط لم تكن سوى العاصمة التجارية والصناعية والمنفذ الخارجي لمقاطعة فلاندرز الفرانكية.

فإذا عدت بضع صفحات إلى الخلف فستجد أن أسرة شامبان وأسرة فلاندرز هما من أسر الملك الإلهي ، وروبرت كونت فلاندرز هو الرجل الذي أوحى إلى الإمبراطور البيزنطي فكرة الاستعانة بقوات فرسان من أوروبا الغربية في حربه مع السلاجقة لتكون هذه إحدى ذرائع الحملة الصليبية.

فهلا أيقنت الآن أن كل ذرائع الحملة الصليبية التي يسميها المؤرخون أسباباً ليست سوى أفاعي خرجت من الجحر اليهودي؟

وأما غير اليهود من أمراء المقاطعات ولوردات الإقطاع وحكام الأقاليم والمدن الدول فقد كانوا غلافاً لليهود في الحملة الصليبية ، وهم غلاف اليهود لأن اليهود في كل شأن ، سياسي أو عسكري أو اقتصادي أو أجتماعي ، وفي كل عصر ومصر ، كما بيننا في **الوحي ونقيضه** ، لا يوجدون ولا يتحركون إلا فى غلاف من الأميين يُذهل به من يرصد الأحداث ويغيب وعيه به عنهم!

وغير اليهود من الأمراء واللوردات والإقطاعيين والحكام كانوا غلافاً لليهود ، أرادوا أو لم يريدوا ، لأن التجار اليهود كانوا في أدمغتهم وفوق رقابهم .

يقول أبرام ليون في كتابه : المسألة اليهودية إن التجارة في أوروبا الإقطاعية كانت وثيقة الارتباط بالإقراض والربا ، والأطراف المتعاملة فيهما وتنتفع منهما واحدة.

فالعناصر التي تقوم عليها التجارة في أوروبا الإقطاعية ثلاثة ، هي التاجر الذي يرتحل ويجلب البضائع من الشرق وينقلها من بلد إلى بلد ، والعبيد وهم قوة العمل أو بديل الآلات ووسائل النقل في الرأسمالية الحديثة ، ثم أمراء المقاطعات ولوردات الإقطاع وحكام الأقاليم وأسرهم ، وهم المستهلك أو السوق التي تتصرف فيها البضائع التي يجلبها التاجر ويحصل في مقابلها على المال ، وهم في الوقت نفسه السلطة التي تتحالف مع التاجر ، فهو يوفر لها ما تريده وهي تسهل له عمله وتمنحه الامتيازات.

وقد كان اليهود ، مع سيادتهم لعالم المال والتجارة بين الشرق والغرب وداخل أقاليم أوروبا المختلفة ، يسيطرون على عناصر التجارة الثلاثة!

فالعنصر الأول هو التاجر ، والتاجر هو اليهودي واليهودي التاجر.

والعنصر الثاني هو العبيد ، ولأن العبيد في عصر لم يكن فيه آلات ولا تقنية ولا روافع وشاحنات كانوا هم قوة العمل الحقيقية ، كانت تجارة العبيد إحدى أكثر أنواع التجارة ازدهاراً في اوروبا الإقطاعية ، وهي تجارة كان اليهود سادتها ويسيطرون عليها سيطرة مطلقة.

ينقل أبرام ليون عن برين أن اليهود منذ القرن التاسع الميلادي وهم سادة تجارة الكماليات والمنسوجات الفاخرة والخمور والتوابل والملح ، بل إنهم كانوا يحتكرون مناجم الملح في نورمبرج Nuremburg ، وهي المصدر الرئيسي للملح في أوروبا بعد الملح القادم من الشرق ، وأنهم كانوا يتاجرون في السلاح ، وجيوش المقاطعات والإقطاعيات الأوروبية المتنازعة تعتمد كلها في تسليحها على ما يجلبه لها التجار اليهود ، ومن ثَم كان هؤلاء التجار وبضائعهم هم الطرف الوحيد القادر على عبور الحدود بين المقاطعات والإقطاعيات المتقاتلة والانتقال عبر خطوط اللقتال بين المحارب ومن يحاربه.

لكن تجارة اليهود الكبرى والمغلقة عليهم ، كما يقول ليون نقلاً عن برين ، كانت تجارة العبيد!

فكان اليهود يأتون بالعبيد من الأماكن النائية والقاصية في رحلات طويلة لبيعهم في أوروبا ، خاصة في فرنسا وإسبانيا.

وقد تطلب ازدهار تجارة العبيد والحفاظ عليها وإحكام غلقها على اليهود تعاوناً وثيقاً بين يهود روسيا وبولندا ويهود غرب أوروبا ، فكان يهود روسيا وبولندا يجلبون العبيد ليهود فرنسا واسبانيا ، ليتولى هؤلاء تصديرهم وبيعهم في المقاطعات الفرنسية والإسبانية والألمانية.

ورغم تحريم الكنيسة لعمل المسيحيين عند اليهود كان التجار اليهود في فرنسا ، كما يقول بن باسا :

"**يوظفون في خدمتهم مسيحيين من الأحرار ، ويبيعون المسيحيين المجلوبين من شرق أوروبا عبيداً في غربها حتى اشتكى بعض القساوسة وثارت ثائرتهم**"!

ففي عهد لويس بيوس بن شارلمان شن أجوبارد Agobard أسقف ليون Lyons حملة عنيفة على :

"ما وصل إليه اليهود في البلاط الملكي من حظوة ونفوذ ، وفي الدولة كلها من سيادة ورفعة حتى علت منزلتهم على منزلة الأساقفة والقساوسة ، وما وصلوا إليه من ثروة وسيطرة على المال والتجارة ، وصبغ الأسواق بصبغة اليهود الدينية حيث تغلق جميع الأسواق يوم السبت لأنه يوم اليهود المقدس الذي لا يعملون فيه".

وقد كتب أجوبارد إبان حملته على اليهود أربع رسائل Epistles ، وفي إحداها اتهم اليهود بإستغلال المسيحين بدنياً وتعمد إذلالهم ، وبسرقة أطفال المسيحيين من بعض البلاد وبيعهم عبيداً في بعضها الآخر.

بل واضطرت عدة مجامع مسيحية خلال القرن التاسع والقرن العاشر ، كما يذكر بن باسا ، إلى إصدار مراسيم تنص صراحة على تحريم استعباد اليهود للمسيحيين.

وأما الطرف الثالث في التجارة فهو الأمراء والإقطاعيين وحكام المقاطعات ، فهذه الأسر الغنية والنبيلة كانت السوق التي يسعى التجار لوضع يدهم عليها ، لأنهم من يستهلكون بضائعهم ويتصرف عندهم مايجلبونه ، ثم هم أيضاً الدولة أو السلطة التي تيسر لهم عبور الحدود ، وتعقد لهم الأسواق ، وتمنحهم المزايا مقابل ما يوفرونه لهم من سبل الراحة ووسائل الترف والرفاهية وعلامات الثراء والفخامة.

تمكن التجار اليهود مع الوقت من التوغل في رؤوس الأمراء والنبلاء والإقطاعيين ليكون مظهر السلطة عندهم الترف والرفاهية وفخامة الثياب وفراهة القصور ، وكلما ازداد الأمراء والنبلاء والإقطاعيون رغبة في الترف والرفاهية والفخامة زاد نشاط التجار وازدهرت تجارتهم ونمت أموالهم واتسعت امتيازاتهم وعلت سلطتهم.

في البداية كان الأمراء والنبلاء والإقطاعيون يشترون من التجار ، بما يملكون من أموال تدرها عليهم أقاليمهم ومقاطعاتهم وإقطاعياتهم الزراعية البدائية ، ما يجلبونه لهم من بضائع وكماليات ووسائل الترف مما يحتاجونه ، وفي أغلب الأحيان يغريهم التجار بشراء مالا يحتاجونه!

وما يغريهم به التجار صار يرفع مع الاعتياد درجة الترف والرفاهية والفخامة ويدعوهم إلى طلب المزيد منها ، فلما صارت هذه قرينة السلطة ومظهرها وألفوها ولم يعد لهم قدرة على الحياة بدونها ، لم يعد ما يملكونه من مال تدره أقاليمهم وإقطاعياتهم يفي بما صارت تشتهيه نفوسهم ، فصاروا بحاجة إلى الاقتراض والاستدانة.

والطرف الوحيد في أوروبا الإقطاعية الذي كان بإمكانه إقراض هؤلاء الأمراء والنبلاء والإقطاعيين هم التجار أنفسهم ، لأنهم الطرف الوحيد الذي يملك السيولة النقدية بما حازوه من ثروات تراكمت من أرباح التجارة في زمان كانت كل الفئات والأطراف الأخرى في أوروبا تعتمد في معاملاتها على المقايضة.

صار الأمراء والنبلاء ولوردات الإقطاع يقترضون من التجار ليتمكنوا من شراء البضائع والكماليات التي يجلبها لهم هؤلاء التجار!

وكان اقتراض الأمراء والحكام من التجار في بعض الأحيان ضرورة إذا ما حلت بمقاطعاتهم أو إقطاعياتهم كارثة أو نشبت بينهم وبين من حولهم منازعات وحروب في أوروبا الممزقة التي يتنازع فيها الجميع ، فكان الأمير أو الحاكم أو لورد الإقطاع اذا حلت به كارثة أو نشبت حرب في إقليمه أو مقاطعته اضطر للاقتراض ، ولأن أوروبا الإقطاعية لا بنوك فيها ولا مال ولا أرصدة ، وكل شئ يُقوَّم بذاته ولا يقدر بالنقود ، فلا ملجأ للأمير إلا التاجر.

لم يكن للأمراء والنبلاء واللوردات بد من الاقتراض من اليهود ، لأن اليهود هم التجار ومن يملكون المال ، ولأن المسيحين وإن امتلكوا المال لا يملكون الإقراض ، لأنه لا طاقة لهم على مجابهة الكنيسة الكاثوليكية ومخالفة تعليم البابوية التي تحرم الربا وتمنع المسيحيين من ممارسته وتخرج من الإيمان والطاعة من يمارسه.

والتاجر اليهودي الذي يملك المال ولا يأبه بتعاليم الكنيسة كان هو نفسه الدائن المرابي الذي يمول الأمراء والنبلاء ولوردات الإقطاع ترفهم ولهوهم ورفاهيتهم ، ويعينهم في كوارثهم لأن له هدفاً وغاية يريد أن يبلغها ، ولا يثنيه عن العمل من أجلها أن نوالها سيكون لأحفاده أو أحفاد أحفاده.

إذا عجز الأمير أو الحاكم عن رد الدين ، والتاجر اليهودي الذي يقرضه يعلم أنه سيعجز عاجلاً أو أجلاً ، زادت الفائدة وتراكمت الديون وفوائدها ، حتى إذا عجز عجزاً مطلقاً حصل التاجر على ما كان يريده من السيطرة على التجارة ومن إغراء الأمراء والنبلاء بالاستهلاك والترف ومن الإقراض وتراكم الديون وفوائدها.

إذا عجز الأمير المدين كان وفاء الدين أملاكاً يتنازل عنها للتاجر ، أو امتيازات يمنحها له ، أو سلطة يضعها في يده ليوجه التاجر اليهودي بها المجتمع والسلطة خطوة

خطوة في الاتجاه الذي يريده ، ليلتقي في نهاية الطريق مع أقرانه وقد فعل كل منهم في الإقليم أو المقاطعة التي نزل فيها مثلما فعل ، فتكون أوروبا كلها قد سارت بذلك في الطريق الذي رسمه اليهود إلى الغاية التي أرادها اليهود دون أن تراهم عين في سلطة ودون أن يرصدهم مؤرخ في قرار أو وثيقة.

يقول بن باسا :

"**إن حاجة النبلاء ، بل الملوك والدولة نفسها إلى الاقتراض من اليهود الذين يحتكرون التجارة ويكدسون الأموال كان هو السبب الحقيقي لما منحه الإمبراطور شارلمان وابنه من بعده لويس بيوس للتجار اليهود من امتيازات ، فكانت لهم محاكمهم الخاصة ، والضرائب المفروضة عليهم أقل من تلك المفروضة على المسيحيين ، وكانت هي السبب في توليه شارلمان ولويس بيوس اليهودَ حكم بعض المقاطعات ، ومنحهم مواقع عليا في البلاط الملكي ، واتخاذهم مبعوثين في المهام الدبلوماسية**" .

وفي إحدى أشهر بعثات شارلمان الدبلوماسية ، وهى بعثته إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد ، كان رئيس الوفد الكارولنجي هو إسحق اليهودي Isaac the Jew .

وينقل أبرام ليون عن كتاب : تاريخ الاقتصاد Histoire Economique لجورج أفنيل George d`Avenel أن :

"**بعض الأمرء وحكام المقاطعات كان إذا عجز عن الوفاء بدينة نصَّب اليهودي الذي أقرضه جامعاً للضرائب في مقاطعته أو إمارته ، وبعض اليهود من دائني الملوك كان يصعد بدينه إلى وزارة المالية ليتولى تنظيم ميزانية الدولة وماليتها ، ويضع كل مصادر دخلها وإنفاقها تحت رقابته**" [•].

ففي اسبانيا كان الماليون اليهود حتى أوائل القرن الرابع عشر هم الذين يجمعون الضرائب في مقاطعاتها من الفلاحين ، وفي بولندا منذ القرن التاسع وملوكها يورثون

[•] إذا رجعت إلى كتابنا :**الوحي ونقيضه** فستجد نسخة مفصلة مما تقرأه الآن ، وسوف تعلم حنيئذ أن لا جديد تحت الشمس ، فما حدث في القرن العاشر هو نفسه ما حدث في القرن العشرين وما زال يحدث ، ويهود القرن العاشر الذين وضعوا ميزانيات الملوك والدول تحت رقابتهم وسخروها لأغراضهم هم أنفسهم يهود القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين الذين وضعوا اقتصاد العالم كله في قبضتهم ويديرونه لأهدافهم ، والفرق الوحيد هو أن اليهودي في القرن العاشر كان يصير وزيراً أوجامعاً للضرائب ، فصار في القرن العشرين صندوقاً للنقد وبنكاً دولياً.

العائلات اليهودية تنظيم مالية البلاد وجمع ضرائبها والرقابة على مصادر دخلها ومصروفاتها.

أما روبرت أونيل فينقل عن جاردان Jardin أنه بين عامي ٨٠٠م و ١٢٠٠م تغير تركيب المجتمع في المدن التجارية في ايطاليا وشواطئ المتوسط وانتقل ميزان السلطة وموضع القوة فيها من الحكام والامراء إلى الماليين والتجار ، فكان الحكام يحكمون في الظاهر ، ولكن قوة البلاد الحقيقية وسلطتها ومناطق التأثير والتوجية فيها في يد اليهود.

فالمنازعات القائمة بين المدن الدول وحاجة حكامها إلى تمويل جيوشهم التي كانت في اغلبها ميليشيات مرتزقة اضطرهم للاقتراض من التجار الذين يملكون فوائض مالية تمكنهم من الإقراض ، ولم يستطع أغلب هؤلاء الحكام والأمراء رد ما اقترضوه من أموال مع ما تراكم عليها من فوائد ، لأن مصادر المال والثروة ليست في ايديهم بل في أيدي من أقرضوهم.

وفي خاتمة الدورة اشترى التجار بديونهم لدى الحكام امتيازات وسلطات مما أدى ، كما يقول روبرت أونيل نقلاً عن لوبيز Lopes :

"**إلى انتقال القوة الحقيقة والسلطة المؤثرة في المدن التجارية الإيطالية والمتوسطية من حكامها وأمرائها وعائلاتهم النبيلة إلى الماليين والتجار والطبقات المحيطة بهم ، ليوجهوا هذه المدن الدول إلى ما يصب في مصلحة النظام الذي وضعه هؤلاء التجار ، وإلى ما يصلون به إلى أهدافهم وغاياتهم**".

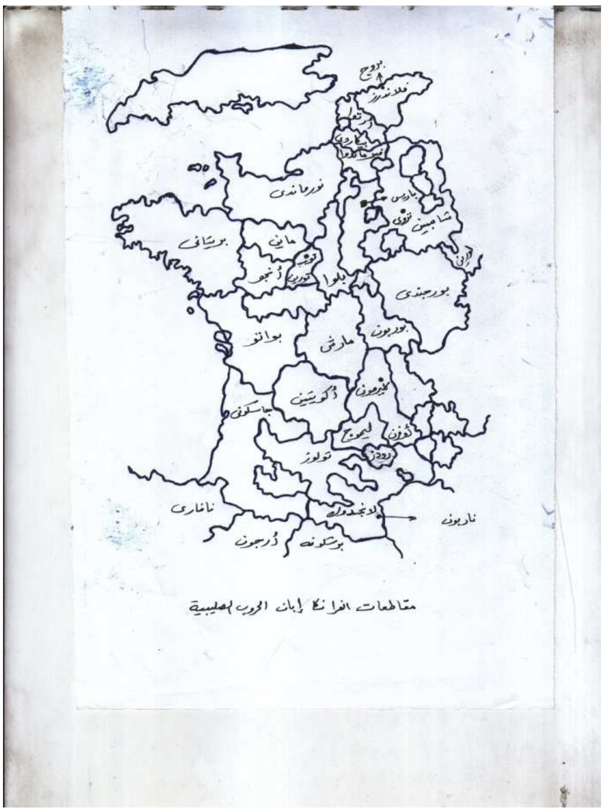
والأسر التي كانت تسيطر على ثروات هذه المدن وتحرك بها الحكام هي كما ذكر أونيل أسر يهودية ، والنظام نفسه ، كما نص برين ، ليس سوى نظام يهودي Judicial System !

فالحملة الصليبية فتحت شرق المتوسط أمام التجارة لتستكمل دورتها وحريتها وسيادة من يسيطرون عليها على العالم ، والتجارة والتجار ليست سوى اليهود !

ملحق الصور



البابا أُربان الثاني في كليرمون يعلن شن الحملة الصليبية بإرادة الرب



مقاطعات الفرانكا إبَّان الحروب الصليبية